محاضرة 1// مدخل

تمهيد:

على الرغم من أن كثير من الباحثين يرون أن "ابن خلدون" هو المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع على مستوى العالم، إلا أن "أوجيست كونت" عالم الاجتماع الفرنسي، يعد هو أول من استخدم كلمة "علم الاجتماع" وذلك عام 1839 مصطلح " Sociology " على ذلك الفرع الجديد من العلم والذي كان يسمى من قبل علم "الفيزياء الاجتماعية."

قرر "كونت" بأن موضوع الدراسة في ذلك العلم الجديد هو "الظواهر الاجتماعية" التي ينبغي دراستها دراسة موضوعية، بمعنى دراستها بنفس طريقة دراسة الظواهر الطبيعية والكيميائية والفسيولوجية أي بشكل مستقل عن ذات الباحث. وأن علم الاجتماع مهمته هي اكتشاف القوانين التي تخضع لها تلك الظواهر الاجتماعية في نشأتها وتطورها وتغيرها، وهي قوانين ثابتة.

علم الاجتماع: تطوره، تعريفه، موضوعه

كلمة "علم الاجتماع" باللغة الإنجليزية هي خليط من أصل لاتيني ويوناني. كما أن جزئيها المكونين لها يصفان ما يحاول هذا العلم الجديد أن يشرحه. فالمقطع Socio يشير إلى المجتمع والمقطع Logy يعني دراسة علمية. وهكذا يعني "علم الاجتماع": الدراسة العلمية للمجتمع. وكما سبق القول هو المصطلح الذي أطلقه عليه العالم الفرنسي "أوجيست كونت" ليكون موضوع دراسة الظواهر الاجتماعية دراسة علمية موضوعية بهدف التوصل إلى القوانين التي تحكم هذه الظواهر في نشأتها ونموها وتطورها.

وقد ظهرت مشكلة تعريف علم الاجتماع منذ اليوم الأول لنشأته كعلم مستقل. ولم يكن التعريف سهلاً أو أمرا يمكن الاتفاق عليه دون جدل. ذلك لأن تعريف علم الاجتماع مرتبط ارتباطًا تاما بموضوعه ومنهجه. بل وبعلاقاته بغيره من العلوم الاجتماعية الأخرى، والعلوم غير الاجتماعية أيضا. وقد ترتب على ذلك أن تعددت تعاريف علم الاجتماع بتعدد العلماء، وبتعدد النظريات والمذاهب التي اتجهت وجهات متعارضة في تحديد ماهية الحقيقة الاجتماعية وماهية الظاهرة الاجتماعية وتفسيرها. ولذلك كان من الأفضل استنباط تعريف علم الاجتماع من تاريخ هذا العلم. فإذا اكتشفنا طبيعة ارتباطه بالحركات الفكرية التي انبثق منها، وأيضا بالعلوم الطبيعية، أمكننا أن نقترب من رسم الحدود للمنطقة التي يطالب علم الاجتماع أن يختص بها، وبالتالي يمكن أن نصل إلى تعريف له.

إن تاريخ علم الاجتماع كعلم مستقل له حدود واضحة لا يزيد عن مائة وخمسين عاما على الأكثر. ولكن لا يعني هذا أن البشرية لم تهتم بالقضايا الاجتماعية بهذا التاريخ .فقد انتبهوا منذ آلاف السنين إلى كثير من تلك الموضوعات وعديد من هذه القضايا (وخاصة المشكلات) التي نهتم اليوم بدراستها دراسة علمية، ولكن ما يميز الدراسات الحديثة هو استخدام مناهج علمية في جمع المعلومات وتفسيرها.

ويعد تعريف علم الاجتماع هو الإشكال الأول الذي يواجه حتى المتخصصين أنفسهم، حيث تتعدد وتتباين تعريفات علم الاجتماع، وليس هناك اتفاقًا حول تعريف محدد ودقيق. ويرجع ذلك الى عوامل متعددة من بينها: تنوع تراث علم الاجتماع منذ أواخر القرن 19 حتى وقتنا الراهن، واختلاف العلماء حول طبيعة الموضوع الأساسي الذي يقوم عليه علم الاجتماع، كذلك اختلاف الاتجاه الأيديولوجي والفكري بين علماء الاجتماع.

غير أنه يمكن ارجاع ذلك الى سببين / اولهما الموقف النظري أو الفكري الذي ينطلق منه التعريف ذاته. ذلك لأن علم الاجتماع شأنه شأن العلوم الاجتماعية الأخرى لا يستند إلى موقف نظري موحد يجمع عليه كافة المشتغلين به، وإنما هو يستند إلى مواقف نظرية وفكرية متعددة تتفاوت في تقاربها أو تباعدها، وتعني بهذه المواقف: النظرية التي يتبناها عالم أو متخصص ما. ذلك لأن علم الاجتماع يرتبط أشد الارتباط بالواقع الاجتماعي بوصفه موضوع دراسته، والمشتغلون به هم جزء من هذا الواقع الاجتماعي، ومن ثم فإن أوضاعهم الاجتماعية واتجاهاتهم الفكرية والفلسفية والسياسية وانتماءاتهم الطبقية تسهم إلى حد بعيد في تباين المواقف النظرية التي ينطلقون منها.

وثاني تلك الاسباب يتمثل في أن معظم تعريفات علم الاجتماع تفتقر بشكل أو بأخر إلى بعض الشروط المنطقية حيث تعرف المجهول بالمجهول. فقد تعرف علم الاجتماع من خلال مفهومات لا تستطيع أن تعرفها إلا من خلال علم الاجتماع ذاته، فهي تعرف علم الاجتماع مثلاً بأنه العلم الذي يدرس السلوك الإنساني أو التفاعل الاجتماعي أو النظام الاجتماعي أو التغير الاجتماعي، علما بأننا لا نستطيع أن نعرف ما هو المجتمع أو السلوك الإنساني أو النظام الاجتماعي أو الظاهرة الاجتماعية إلا من خلال دراستنا لعلم الاجتماع. فإذا كنا مبتدئين لا نعرف (نظريا) شيئًا عن علم الاجتماع، فكيف نفهم مصطلحات مثل المجتمع أو النظام الاجتماعي أو التفاعل الاجتماعي وغير ذلك من المفهومات التي طرحت بوصفها تعريفًا؟

هناك عدة تعريفات متباينة لعلم الاجتماع منها مايرى انه علم دراسة السلوك الانساني والبعض الاخر يصفه بانه تفاعل الانسان التبادلي . ايضا دراسة النظام والبناء الاجتماعي ، ودراسة التجمع البشري في حركيته واستقراره.

يعتبر "أوجيست كونت" من المفكرين الفرنسيين الذين اهتمو بدراسة ما انتاب السلوك البشري من فوضى بعد الثورة فرغب في وضع اساس ثابت وقانون عام لتوجيه الآراء والمعتقدات وقد طرح فكرته في كتابه الفلسفة الوضعية 1843 مؤكدا على ان الاجتماع الانساني يجب ان يكون موضوعا لعلم مستقل سماه الفيزياء الاجتماعية لاعتقده ان الضواهر الاجتماعية خاضعة لقوانين طبيعية كغيرها من الظواهر. وقد عرف علم الاجتماع بأنه "العلم الذي يهتم بدراسة البناء الاجتماعي وما به من مؤسسات.

ايضا يعتبر ماكس فيبر من بين العلماء الذين اهتموا بدراسة السلوك والتفاعلات البشرية وقد عرف علم الاجتماع بانه العلم الذي يحاول الوصول الى فهم تفسيري للفعل الاجتماعي.

أما "بيتريم سروكين"، فيرى أن علم الاجتماع هو ذلك المفهوم الذي يشير إلى جميع المعلومات الخاصة بالتشابه بين مختلف الجماعات الإنسانية، وأنماط التفاعل المشترك بين مختلف جوانب الحياة الاجتماعية الإنسانية؛ لذلك عرّفه بأنه العلم الذي يدرس الثقافة الاجتماعية، كما عرّفه بأنه دراسة الخصائص العامة المشتركة بين جميع أنواع المظاهر الاجتماعية والعلاقات بين هذه الأنواع، وكذلك العلاقات بين الظواهر الاجتماعية وغير الاجتماعية مثل: علاقة الظواهر الدينية بالظواهر الاقتصادية. أما "رايت ميلز"، فيرى أن علم الاجتماع هو العلم الذي يدرس البناء الاجتماعي للمجتمع والعلاقات المتبادلة بين أجزائه، وما يطرأ على ذلك من تغير. أما "جورج ليندبرج"، فيرى أن علم الاجتماع هو علم المجتمع؛ بينما يرى "ماكيفر" أنه العلم الذي يدرس العلاقات الاجتماعية.

حدد كل من "كامبل يونج" و"ريموند ماك"، علم الاجتماع بأنه الدراسة العلمية للمظاهر الاجتماعية للحياة الإنسانية والمعرفة البشرية المرتبطة بها، من خلال عملية التفاعل الاجتماعي (ويعني بذلك المثير والاستجابة المتعاقبة أو المتبادلة بين اثنين أو أكثر من الناس)، ومن ثَم، يهتم علم الاجتماع بالإنسان والسياق الاجتماعي والجماعة الإنسانية.

ومن الاراء الحديثة نجد زاندان الذي يعتقد ان علم الاجتماع بالاساس هو علم التفاعل الانساني الذي يتجلى في التاثير المتبادل الذي يمارسه الافراد في علاقاتهم المتبادلة، حيث انه لايهتم بما يجري داخل الفرد بل بما يحدث بين الافراد.

اما ماكجي 1977 فيتبنى تعريفا يذهب الى انه العلم الذي يدرس النظام الاجتماعي، ويشير تصور النظام الاجتماعي الى ذلك النمط المنظم الذي تجري وفقه الشؤون الانسانية .

وبالتالي يمكن عد العناصر الاساسية التي تضمنتها التعريفات السابقة على النحو التالي

.. انه علم دراسة السلوك الانساني .. علم دراسة التفاعل الانساني ... دراسة النظام الاجتماعي. ... دراسة الانماط والظواهر الاجتماعية

يتضح مما سبق مدى تعدد وتباين تعريفات علم الاجتماع، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أهمية هذا العلم واتساع معارفه ومجالاته المتنوعة. كما يُلاحظ، أيضاً، على هذه التعريفات أنها أحياناً توسّع نطاق هذا العلم حتى تجعله يشمل نطاق المجتمع كله، الأمر الذي يوضح صعوبة الاتفاق حول تعريف محدد ومتفق عليه بين المشتغلين بهذا العلم.

///// أما فيما يتعلق "بموضوع علم الاجتماع"، فإن "أوجيست كونت" قد صنفه إلى قسمين رئيسيين أو موضوعين أساسيين هما: الاستاتيكا الاجتماعية، الديناميكا الاجتماعية.

وتهتم الاستاتيكا الاجتماعية بدراسة النظم والبناء الاجتماعي من ناحية التكوين والدور في المجتمع، حيث يركز هذا القسم على الاستقرار الاجتماعي. بينما تهتم الديناميكا الاجتماعية بدراسة تطور وتغير المجتمع حيث تركز على دراسة التطور والتغير الاجتماعي.

وقد اتسع نطاق مناقشة الموضوع الأول وهو الاستاتيكا الاجتماعية ،والذي أخذ فيما بعد تسمية جديدة هي "البناء الاجتماعي" . اتسع نطاق مناقشته بظهور الاتجاه البنائي الوظيفي الذي يقوم في جوهره على تصور المجتمع كبناء مكون من أجزاء متعددة تقوم كل منها بوظيفة محددة، وتترابط الوظائف وتتكامل فيما بينها للمحافظة على هذا البناء.

أما "إميل دوركايم" فقد كان أيضا من أوائل من أدركوا أهمية النظر إلى المجتمع من زاوية البناء والوظيفة حيث قسم موضوع علم الاجتماع إلى "المورفولوجيا الاجتماعية" و"الفسيولوجيا الاجتماعية" وتهتم الأولى بدراسة البناء الاجتماعي بالمفهوم الشائع في علم الاجتماع، والثانية بالوظائف التي يؤديها هذا البناء في أجزائه المختلفة.

وقد حاول "دوركايم" تحديد الموضوع الرئيسي لعلم الاجتماع بأنه "الظواهر الاجتماعية"، لذا فقد اجتهد في تحديد خواصها التي تميزها عن غيرها من ظواهر الطبيعة، كما حاول أن يحدد الفارق بين معالجة الاجتماع للظاهرة الاجتماعية ومعالجة أي علم اجتماعي أخر لها. فعلم الاجتماع يدرس من الظاهرة الاجتماعية الجوانب التي تتصل بنشاط الإنسان ككائن اجتماعي ينتمي إلى المجتمع ككل لا إلى ناحية واحدة فيه كالناحية الاقتصادية فقط أو السياسية فقط أو الدينية فقط.